عبر الزمن

من سحبٍ
طوّقت صفحةً من عنق السماء المتعالي
انفرطتْ متتالية
بلوراتٌ ثلجية
تهاوت برقّة ودلال
على كفّي الممدودة من النافذة،
دغدغتني بنعومة،
انتظرتُ حتى تراكمتْ حول البيت.
تناولتُ معطفاً كبيراً وطاقية صوف،
لن تصدقوا ماذا وجدت في الخارج!

برعماً صغيراً أخضـر ينتفض بقوة من بين الثلوج

غدوتُ محاطة من جميع الجهات بعشـرات البراعم،

كل عودٍ يطولُ أكثر وأكثر وأكثر، وبسـرعة

لتتفتح زهرة كبيرة غريبة في نهاية الساق الشامخة، تليها أزهار صغيرة..

إنها هي..

أنا متأكدة..

أوركيدا،

زهرة الأوركيدا في الثلج؟!

مستحيل!

لا أدري كم لبثت متجمدة، أتأمل المشهد الفريد،

بلعت ريقي مرتين، وضحكت مرات،

جثوت على ركبتي،

أريد لمسها، مددت يدي وتراجعت،

أصابعي تحرقت برداً، ولهفة،

لم أحتمل جمالها.

بكفّين مرتعشـين، حضنت ما استطعت منها،

تملّكني إحساس بدغدغة في أصابعي ورأســي..

ما هذا؟

نبتت أوركيدات جديدة

نمت من جلدي، وعلى جسمي،

ناديتُ جهراً؛ يا رب!

الندفُ الثلجي توقف،

ضـياء اندفع من الأرض، شقّق الثلج،

فتوقفت عن النمو، وبدأ لونها يزداد دكونةً..

كفقاعات انفجرت، لتتلاشى في الفراغ، ناثرة غباراً ملوناً

امتلأت عيناي به، فلم أعد أستطيع فتحهما

أمسكت رأسـي بيديّ

وناديت همساً؛ يا رب!

تحولت إلى جسم أثيري،

بحثت عن نفسـي..

روحي محبوسة داخل زهرة الأوركيدا..

خرجت من شق صخرة مغروسة وسط هضبة، في جزيرة

شـرقُها وادٍ فسـيح لا نهاية له من الأوركيدات اليانعة..

وغربها ساحلٌ تقترب منه سفينة فكتوريا.

هواء جاف. غيوم بعثرتها رياح من الشمال. قرص شمس ذهبي يرسل أشعته لتنحني بإجلال أمام السفينة الملكية المعتقة برائحة الورد الذي كان وسيكون.

أنتظر بلهفة قدوم السفينة، أرصدهم من بعيد.

سترسو بعد دقائق في مرفأ بحري للجزيرة، سفينة كبيرة بحجم أحلام الملك الذي لا تغيب عن إمبراطوريته الشمس. نقش على أحد جانبيها بحروف لاتينية بارزة اسم فيكتوريا، تيمناً باسم جدته واستكمالاً لحملاتها السابقة في جمع زهرة مميزة جداً.

امتلأت أحشاء السفينة بالأدوات والصناديق، مع مجموعات بشرية متكومة من الأصقاع كافة، متلاصقة ظهراً بظهر، لا يستطيعون الحركة إلا بصعوبة بالغة.

في إحدى تلك الغرف المعتمة، انكسر شعاع رقيق من النافذة الدائرية الصغيرة، المغروسة في الجدار، على وجه الجد أحمد، الذي جلس مكوّراً جسده الكبير، ضامّاً ساقيه بيديه الغاضبتين، ملصقاً أنفه بـ«قنبازه»[1].

رمل حار ناعم، يطفئ لهيبَهُ تتابعُ الأمواج الناعسة التي ترتخي على شاطئ جزيرة مدغشقر، ذلك الذي تتموج رماله عند التقائها مع الماء كشعر مجعد لحورية منسية، تتدحرج عليه ثمار جوز الهند الناضجة، تجري مع انحدار الأرض تحت الظلال ونحو الماء.

1- القنباز: الثوب التقليدي للرجال في فلسطين.

انتصفت الشمس في مدارها السماوي فوق رؤوس الجميع، تتحسس ملامحهم بأشعتها المتوهجة، تتابع بشغفٍ الأمتعةَ، تهبط سلالم السفينة محمولة على سواعد قوية للرجال، تتداخل ثرثراتهم مع أصوات النوارس المحلّقة بخفة في الأفق، لتنطلق جميع الأصوات نحو الفضاء وتذوب في الكون، ليصيدها صامت أشنف سمعه للحقيقة.

الأجساد تتجه نحو اليابسة، تلتهم المسافات بشراهة طمعاً بالخلاص، تنصت الشمس إلى صوت القبطان يوجه تعليماته للجميع.

ختم القبطان حديثه بجملة واحدة، صاكّاً على أسنانه:

- لا أريد أن تبقى أيّ زهرة على الجزيرة. انطلقوا، في كل الاتجاهات.

لم يفهموا طلاسم لغته الغريبة عليهم. أدركوا، وهو يشير بالمنجل على صورة للأوركيدا، الغايةَ والمطلوب.

المناجل ذوات النصل الحديدية المعقوفة تتلقفها الأيدي. بخطوات واسعة يتقدم الجد أحمد متناولاً أحدها، صدره يتهدج بالآهات هاتفاً بالخلاص، فما عادت روحه تتحمل الفراق، الشمس تلسعه من الخلف بحرارتها، فيخلع قمبازه بعد أن فكّ عقدته استعداداً للعمل.

أنا روح في جسد الأوركيدا على الهضبة الوسطى، حاولتُ جاهدة أن أُنادي على الجد أحمد صاحب الكوفية، لأدلّه على وادي

الأوركيدا في الجهة الشرقية من الجزيرة، لكنه لم يسمعني.

فكرت في حيلة، فنشرت عبيري نحوه.

أريجُ عبقٍ قاده بلا وعي إلى الوادي الواقع شرقاً. وصل الهضبة وانحدر نحو شريط من الغابات المطيرة، تجلت بعدها بجلال مهيب أوديةُ الأوركيدا، تردد في الإقدام والحزن يسحق قلبه، طالباً من الله المغفرة لما سيلحقه بها، لكن لا مفر، عليه إنجاز العمل ليعود لأسرته، كلما تذكرهم تمور الدماء في عروقه، ونار جامحة تأكله، وطاقة كبيرة تتعاظم في ساعديه، ضربة من اليمين وأخرى من اليسار، لهاثه ما بين شهيق وزفير، يتردد صداه في الوادي.

كلما ضرب عنق زهرة، أغمض عينيه لتفرّ الدموع، تتطاير في السماء منقسمة إلى دمعات أصغر فأصغر، تبلل بتلات الأوركيدا من حوله لتبدو هي الأخرى باكية على حاله وحالها، استمر بضرب أعناقها بهذيان محموم. عبست الشمسُ بغروبها، الليل ينشر حبره على السماء الصافية، والنجمة الأولى تلمع في عتمة مسرح الفضاء. الجد أحمد ممدّد على الأرض بالقرب من الصناديق الممتلئة بالأوركيدا، منجله على صدره، وستائر السماء تنكشف لحظةَ وداع زوجته.

عيناه تجحظان وهما تجترّان المشهد عندما حضرت تلك السيارات المتوحشة، تجمع الرجال قسراً لجوفها، خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين.